الصلات المتبادلة
بين النقد والأدب والبلاغة

الصلات بين النقد والأدب والبلاغة[1]

قبل البحث عن هذه الصلات أحب أن أطرح هذا السؤال: ما العلاقة الجذرية بين النقد العربي، والنقد الأدبي، والبلاغة العربية؟ وللإجابة عن هذا السؤال أقول: الصلات والروابط التي أبحث عنها في هذا البحث الموجز بين الأدب والنقد والبلاغة ليست مستحدثة من اختراعي، وكذلك ليست مقصورة على موضوع أدبي بعينه، أو موضوع نقدي بذاته، أو بلاغي بنفسه، ولكن صلات وروابط جذرية قديمة قدم الأدب والنقد والبلاغة، وممثلة في كل موضوعاتها بجميع فروعها، وهذا أمر بين واضح يؤيده المنطق العربي، والواقع النقدي كما تؤيده الحقيقة البلاغية.

فالأدب هو موضوع النقد والبلاغة، منه استمدا موضوعاتهما، وفي ميدانه أعملا نشاطهما بفاعلية مؤثرة، فعلاقتهما به إذن علاقة طبيعية وثيقة متينة لأنها علاقة الفرع بالأصل، أو علاقة العضو بالجسد. والنقد الأدبي ظل الأدب المبدع، فإذا عز وجود الأديب المبدع فإن الفن النقدي يصبح بالتالي غير ذي موضوع. كذلك الأمر في البلاغة فإنها وثيقة الصلة بالأدب من حيث الموضوع.

---

(١) الدكتور محمد عبد القادر ناصر: الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي الأول، رسالة الدكتوراة غير مطبوعة الرقم ٢٢٦٧ مكتبة جامعة القاهرة عام ١٩٦٨م.

فإذا انتقلنا من هذا الاستدلال العقلى والمنطقى إلى التطبيق العملى فى مجال الأدب والنقد والبلاغة، ورجعنا إلى الوراء نستعرض الظواهر الأدبية، ونرصد ما صاحبها من خطوات عملية فى مجال النقد والبلاغة فإننا نضع أيدينا على ما يؤيد قدم الصلات الوثيقة المتينة، واتساع مداها بين النقد والبلاغة من ناحية، وبينهما وبين الأدب من ناحية أخرى.

إن البلاغة[1] بمفهومها اللغوى العملى موجودة من قديم الزمان من يوم أن عرفنا أن هناك عربا تميزوا بقوة البيان ولكنها بمفهومها العلمى أو الفنى الحديث، وهى أنها تشتمل على أبواب وفصول ومواضيع لم تعرف إلا بعد أن بدأ علماء المسلمين فى القرن الثالث الهجرى[2] التأليف فى الإعجاز القرآنى، وكانت أبوابها فى كتب الإعجاز متناثرة، وبقيت على هذه الحال إلى أن جاء عبد القاهر الجرجانى فوضع لها اللمسات الفنية التى تجمعها دون أن تضر برونقها وجمالها، أو تحد من سلطانها الفنى والذوقى والبيانى[3]

---

(١) الدكتور محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى ١٩ وما بعدها، والدكتور مصطفى الصاوى الجوينى: البلاغة والنقد بين التاريخ والفن ٥-٩.

(٢) الدكتور بكرى شيخ أمين: العنبر الفنى فى القرآن ١٦٣، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

(٣) الدكتور محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى ٢٢ وما بعدها، والدكتور مصطفى الصاوى الجوينى: البلاغة والنقد بين التاريخ والفن ٧ - ٩، والدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ١٠٢.

أما بالنسبة للنقد الأدبى فإنه متقدم على البلاغة العربيـة وعلومهـا وفنونهـا، والدليـل علـى ذلـك هـو تلـك الكتـب الأدبيـة، ومـا حوتـه فـى بطونهـا ومتونهـا ونصوصها من اللفتات النقدية، وكذلك اختلاف الأمزجة والأذواق تجاه أى نـص أدبى، إذ بينما يعجب أحدنا بنص أدبى معين، نجد آخريـن لايفضلـون هـذا النـص الأدبى.. إن قصة الخنساء وحسان بن ثابت فى تاريخ الأدب العربى، واحتكامهمـا إلى النابغة الذبيانى، وتفضيل النابغة للخنساء مما أثار حسان عليه، حتى قـال: " أنـا والله أشعر منك ومنها " فقال له النابغـة حيـث تقـول مـاذا؟ فقـال حسـان حيـث أقول:

لنا الجفنات الغر يلمعـن فـى الضحـى
وأسـيافنا يقطـرن مـن نجـدة دمـا
ولدنـا بنـى العنقـاء[1] وابنـى محـرق
فـأكرم بنـا خـالا وأكـرم بنـا ابنمـا

فقال له النابغة: إنك لشاعر لولا إنـك قللـت عـدد جفـانك، وفخـرت بمـن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك[2] إن هذه القصة دليـل قـاطع علـى تقـدم النقـد علـى البلاغة فى البيئة الأدبية فى العصر الجاهلى.

---

(١) العنقاء: ثعلبة بن عمر مزيقياء أحد أجداد الأزد القدامى فى اليمـن، ومعـروف أن الخـزرج قبيلة حسان أزدية. ويريد بالمحرق جبلة بن الحارث أمير الغساسنة فى الشـام لأوائـل القـرن السادس، وهم أيضا من عرب الأزد. ومعروف أن العنقاء اسم طائر خرافى أيضا.

(٢) الجمهرة ٥٧، والدكتور عبد الرحمن عثمـان: معـالم النقـد الأدبى١٠١-١٠٢، والدكتـور داود سلوم: تاريخ النقد العربى من العصر الجاهلى حتى القرن الثالث١٠-١٥، وطه أحمـد

تابع

وبالإضافة إلى ذلك فإن الشعر والنثر الفنى يمثلان الأدب الإنشائى، والنقد والبلاغة تمثلان الأدب الوصفى، والأدب الوصفى لايأتى إلى الوجود إلا لخدمة الأدب الإنشائى ولخدمة أصحابه[1]، وهذا دليل آخر على تقدم النقد على البلاغة، ومن الواضح أن النابغة قد أبدى لمحاته النقدية لخدمة الشعر بناء على ذوقه الفطرى.

وفى إمكاننا أن نستنبط من هذه القصة فى تاريخ الأدب العربى الجاهلى الملاحظات النقدية الآتية:

أولا – إنه أول ناقد عربى وجد عقب أول منشئ، إذ لايعقل أن يوجد أدب دون أن يوجد فريق يستحسن ويتذوق، وفريق يستقبح ويستهجن، والفريقان يمثلان الناقد فى كلتا الحالتين، ويجوز أن يكون هناك فريق ثالث وسط بين الأمرين والفريقين. فقد وجد النقد الأدبى أولا، ثم وجدت البلاغة، وقد سبقهما الأدب بقسميه ليكون ميدانا واسعا، ومجالا فسيحا لعملهما النقدى والبلاغى، فالنقد الأدبى أصل، والبلاغة فرع[2]، فالأصول لها الصدارة فى الوجود، ثم تأتى الفروع حاملة تلك الصلات والروابط الجذرية التى تربطها بالأصول ربطا محكما.

تكملة .....

إبراهيم: تاريخ النقد الأدبى عند العرب٢٩–٣٠، والدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ١١، والأغانى ٩: ٣٤٠، والمرزبانى: الموشح٦٠.

(١) الدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة: دراسات فى النقد الأدبى والبلاغة ٩ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ٩، و٣٣. والدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى الأول، رسالة دكتوراه ...

ثانيا – إن النقد الأدبى أسبق من البلاغة كما يتضح ذلك من القصة السابقة، ومن غيرها من النماذج النقدية القديمة، فعندنا أدب، وهو شعر كل من حسان والخنساء، ونقد أدبى، وهو ملاحظات النابغة النقدية، وليس عندنا بلاغة بمفهومها الفنى، وهذه الملاحظات النقدية رد فعل للأدب، والأدب لايمكن أن يمضى دون رد فعل له فى النفوس، ومن رد فعله فى النفوس نشأ النقد الأدبى.. نشأ نتيجة لصدى الأثر الأدبى فى نفوس الناس استجابة أو نفورا، فالنقد أسبق من البلاغة وأقدم حيث إن النقد فن يراقب الإنتاج الأدبى بمقاييسه الفنية، والبلاغة قواعد وعلم، ومقاييس النقد هذه تتحول فى البلاغة إلى قواعد، فالنقد لايسبق الأدب، والبلاغة لاتسبق النقد والأدب، والأدب مادة النقد الأدبى أولا، ثم مادة البلاغة ثانيا على الترتيب الزمنى، إلا أن حقل البلاغة غير بعيد عن حقل النقد، فالأول امتداد للثانى، ففى المجال الأدبى يلتقى النقد بالبلاغة فى تاريخهما الفنى الطويل[1].

ثالثا – إن النقد متقدم على البلاغة، وذلك لأن التحليلات التى جاءت على لسان النابغة لحسان تحليلات نقدية محضة، إذ لم يقصد النابغة فى كلامه، أو فى تعليقه على شعر حسان أن يتكلم فى البلاغة، أو يوضح لنا الطريق الذى يمكن أن يكون فيه الكلام حسنا، بل وضح لنا أخطاء حسان متخذا المقياس الأول (الذوق)

---

(١) المرجع السابق ٣٠، والدكتور محمد عبد القادر عبدالناصر: الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى الأول، رسالة دكتوراه غير مطبوعة.. .

سندا له فى تدليله وتعليله لتحليلاته النقدية، وأراد بذلك أن يوضح الجمال الفنى فى النص الأدبى فى ذلك العصر من العصور الأدبية القديمة.

وعليه فالنقد الأدبى أسبق وجودا من الفن البلاغى، ومتقدم على البلاغة بمفهوم كل منهما علميا وفنيا، ومن قبل أن يعرف أنه نقد، وما ذلك إلا لاختلاف الأمزجة والأذواق حول نص أدبى واحد. وعلى كل حال فإن البلاغة تتصل بالنص الأدبى وحده، وأما النقد فمجاله أوسع وأشمل، ومن ناحية أخرى فإن البلاغة قد ارتبطت بالإعجاز القرآنى، بينما ارتبط النقد الأدبى بالشعر، لأن القرآن الكريم قد قامت حوله دراسات بلاغية، بينما الشعر تناولته دراسات نقدية[1].

رابعا – إن حسان بن ثابت الشاعر المطبوع الموهوب كانت تخفى عليه عيوب شعره، لذلك نجده يثور عند ما قال له النابغة: إن الخنساء أشعر منك، فيقول له: أنا والله أشعر منك ومنها. وهذا دليل على اختلاف الأمزجة والأذوق، وضرورة وجود النقد عقب المنشئ، لأن حسان بن ثابت هدأت ثورته عند ما علم بالحقيقة، وعند ما سمع كلام النابغة قام من مجلسه وهو منكر تحت وطأة الحقيقة

---

(١) راجع فى ذلك: الدكتور عبد العزيز عبد المعطى عرفة: قضية الإعجاز القرآنى وأثرها فى تدوين البلاغة، الباب الأول ٨١ وما بعدها، والدكتور إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبى عند العرب، النقد وفكرة الإعجاز ٣٣٧ وما بعدها، ٤١٩، والدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة: دراسات فى النقد والبلاغة ٩–٤١، والدكتور أحمد كمال زكى: النقد الأدبى الحديث أصوله واتجاهاته ٤٥ وما بعدها، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٨١م.

المكرهة المرة. وكذا قضية امرئ القيس وعلقمة وأم جندب عند ما احتكما إليها فى وصف الفرس، ففضلت علقمة على زوجها[1] .

وكذلك نجد فى عصر صدر الإسلام اللمحات النقدية من الرسول ﷺ[2]، وأبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما، فقد جعل عمر بن الخطاب زهيرا أشعر الشعراء، لأنه لا يعاظل فى الكلام، ولايمدح الرجل إلا بما فيه[3]، حيث تثبت هذه اللمحات النقدية تقدم النقد على البلاغة فى صدر الإسلام.

على أن الأمثلة الأدبية كثيرة، والبراهين والأدلة متوافرة على تقدم النقد عن البلاغة، ولسنا فى حاجة إلى مزيد من الأمثلة والأدلة على ما تقدم فى هذا الشأن[4] .

---

(١) الأغانى١٨: ٣٩٩، والدكتور داود سلوم: تاريخ النقد الأدبى من العصر الجاهلى حتى القرن الثالث ١٠-١٥، والدكتور عبد الرحمن عثمان: معالم النقد الأدبى ١٠٦وما بعدها.

(٢) عبد القاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز ٩ وما بعدها، وابن رشيق: العمدة ١ : ١٠ - ١٢، وابن عبد ربه: العقد الفريد ٣ : ٣٩٢ وما بعدها، وعبد الرحمن عثمان: معالم النقد الأدبى ١٢٠.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ١: ٢٠٤، وعبد الرحمن عثمان: معالم النقد الأدبى١٢٠.

(٤) الجمهرة ٥٧، وداود سلوم: تاريخ النقد العربى ١٠- ١٥، وطه إبراهيم: تاريخ النقد الأدبى ١٤٠.

أما عن نشأة البلاغة وتطورها فإننا نستطيع أن نقول، ونحن مطمئنون: إن بحوث البلاغة قد بدأت منذ أن بدأ التأليف فى الإعجاز القرآنى، إلا أن هذا البدء لم يبرز البلاغة على حقيقتها الفنية، وإنما دار حول مفاهيمها ومواضيعها، وأبان بعض محاسنها وأفانينها الجمالية، حتى أتى عبد القاهر الجرجانى[1] فوضع لها اللمسات الفنية والمنهجية فى كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة. وعلى هذا فإن **عبد القاهر الجرجانى** يعتبر المهندس الفنى للبلاغة العربية[2] . والتأليف فى الإعجاز القرآنى قد أثرى البلاغة والنقد معا، ولو لاه لبقيت الأفكار النقدية والبلاغية خاملة جامدة حتى الآن[3] .

وبهذا يتبين لنا أن الاتجاه إلى التأليف فى الإعجاز القرآنى للكشف عن أسرار القرآن البيانية والجمالية والفنية كان لفتات نقدية، ودراسات بلاغية فتحت آفاقا واسعة أمام هذين العلمين أو الفنين الجميلين. والعلماء الذين ألفوا فى الإعجاز القرآنى كثيرون.. منهم الواسطى فى كتابه إعجاز القرآن فى نظمه، والباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن، والخطابى البستى والرمانى والجرجانى فى

---

(١) شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ١٦٠، وبدوى طبانة: البيان العربى ١٦١، وطه أحمد إبراهيم: النقد الأدبى عند العرب ٣١ – ٣٣، والدكتور محمد زغلول سلام تاريخ النقد العربى ٢١٤ وما بعدها.

(٢) محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبى والبلاغة٢٢، وتاريخ النقد العربى من القرن الخامس ١١٤، وعبد الرحمن عثمان: معالم النقد الأدبى ١٧٠-١٧٤.

(٣) تاريخ النقد والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى ١٧، وتاريخ انقد العربى من القرن الخامس ٢١٠.

" الرسائل الثلاث فى إعجاز القرآن "[1]، وابن قتيبة فى كتابه مشكل القرآن، والفراء فى كتابه معانى القرآن، والجاحظ فى كتابه نظم القرآن ولكن أول من تكلم عن البلاغة فى إعجاز القرآن الباقلانى والواسطى[2] .

وأما كتاب " مجاز القرآن " لأبى عبيدة فيعتبر تفسيرا للقرآن الكريم، وليس أول كتاب فى الإعجاز القرآنى، إلا أنه قام بأول تجربة من هذاالنوع، وهو أول كتاب يصلنا فى الدراسات القرآنية. وقد كان النص القرآنى مجالا واسعا وخصبا للعلوم العربية، والفنون البلاغية، لأن الفنون البلاغية فى تفصيلها وتدقيقها الفنى الكامل لا تحتملها النصوص الأدبية، ولا تنطبق إلا على النص القرآنى[3] حيث إنه منبع فياض للبيان العربى المبين.

ولكن ما لنا والرجوع إلى الوراء البعيد، حسبنا أن يكون رجوعنا إلىبداية العصر العباسى[4] الذى شهد تطور الأدب العربى، كما شهد تطور النقد والبلاغة العربية فى الوقت نفسه، وإن شئت فقل: شهد نشأتهما الحقيقية، ولاشك فى أن اقتران الحركة النقدية والبلاغية بالحركة الأدبية فى التطور فى هذه المرحلة من مراحل تاريخ الأدب العربى، يدل على الصلة الوثيقة بين النقاد والبلاغيين من

---

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن، تحقيق خلف الله ومحمد سلام، دار المعارف بمصر ١٩٥٥م.

(٢) الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى: البلاغة والنقد بين التاريخ والفن ١٠ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق ١٦٧ - ١٦٨.

(٤) طه أحمد إبراهيم: تاريخ النقد الأدبى عند العرب ١٢٥ وما بعدها.

جهة، وبينهم وبين الأدباء والكتاب من جهة أخرى. فلو لا ما أحدثه الأدباء من تطور فى الأدب العربى لما وجدنا التطور النقدى، والتطور البلاغى. نعم، كانت هناك عوامل أخرى ثقافية وعقلية وسياسية واجتماعية ساعدت على تطور النقد والبلاغة، ولكن هذه العوامل ما كانت تؤدى دورها الأدبى فى هذا التطور من غير أن يكون فى الأدب ذاته ما يدفعها إلى الأداء العملى فى هذا الميدان.

ثم إذا استعرضنا بعد ذلك بعض الظواهر الأدبية كاللفظ والمعنى، والفنون البديعية، والسرقات الأدبية، فإننا نجدها تنعكس بوضوح على النقد والبلاغة، أى أن الأدباء بإيجادهم لهذه الظواهر فى الأدب، فتحوا مجال الحديث فيها أمام النقاد والبلاغيين[1] العرب.

وعناية الأدباء منذ العصر العباسى بالتأنق اللفظى نبهت الجاحظ إلى أن يفتح باب قضية من أوسع وأهم قضايا النقد فى تاريخ الأدب العربى، وهى قضية اللفظ والمعنى[2]، و لم يلبث النقاد والبلاغيون العرب من بعده حتى ألحوا – بشدة وبعنف وإصرار– على هذه القضية الأدبية بين مرجح للمعنى، ومؤيد للفظ، وموفق بين

---

(١) راجع فى كل ذلك: الدكتورمحمد عبد القادر عبد الناصر: الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، رسالة الدكتوراه غير مطبوعة رقمها ٢٢٦٧ مكتبة جامعة القاهرة.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين١: ١٣٦، و١٤٤، و١٥٠، والدكتور محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبى والبلاغةحتى القرن الرابع الهجرى ٦٦، و١٨٦، والدكتورمصطفى الصاوى الجوينى: البلاغة والنقد بين التاريخ والفن ٢٤٢ وما بعدها.

اللفظ والمعنى، وبجانبهم الأدباء يمدونهم بما يتكلمون فيه، ويبالغون فى التأنق اللفظى، حتى أدى ذلك إلى حدوث رد فعل عكسى عند مهندس البلاغة العربية عبد القاهر الجرجانى الذى قرر – بإصرار وإلحاح شديدين – أن الإعجاز ليس فى اللفظ ولا فى المعنى وحده، وإنما هو فى النظم، وعلاقة الكلمة بالكلمة، والجملة بالجملة، وفى إطار العبارة الأدبية والنص الأدبى فى الأدب العربى.

وبهذا نرى أن هذه الظاهرة الأدبية – قضية اللفظ والمعنى – قد نشأت فى الأدب، ثم أثّرت فى النقد والبلاغة. ومن ناحية أخرى نرى أن اهتمام النقاد والبلاغيين بها دفع الأدباء بعد ذلك إلى العناية باللفظ دون المعنى، وحتى دون العناية والاهتمام بالنظم والعلاقات، بحيث لم تجد صيحة عبد القاهر الجرجانى آذانا صاغية، ذلك لأن تيار التأنق اللفظى كان أشد وأقوى من أن يقاوم بأية صيحة مهما علت، وإن كانت هذه الصيحة صادرة من مهندس البلاغة العربية عبد القاهر الجرجانى الناقد البارع، والبلاغى القدير، والأديب الجدير بالثقة، أو من أمثاله من النقاد والبلاغيين والأدباء.

وتعمد البديع فى الأدب[1] وفنونه تحقيقا للتأنق اللفظى، واعتقادا بأهمية اللفظ دون المعنى فى النقد والبلاغة، قد أثار معركة أدبية أخرى ظفرنا منها بما كتبه الجاحظ، وابن المعتز، ومن جاء بعدهما عن البديع. فلو لا وجود البديع فى

---

(١) تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى ١٥٥، وتاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى ٣١٣ وما بعدها، والدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ٦٢ وما بعدها، والدكتور بدوى طبانة: البيان العربى٦٢ وما بعدها.

الأدب العربى، لما حدثت تلك المعارك الأدبية بين الأدباء والنقـاد والبلاغيين، ولما ظفرنا بما ظفرنا به من دراسة عنه، ومن تأليف مبكر فيه[1] . وبهذا تتضح أمامنا صلة النقاد والبلاغيين بالأدباء، وبالتالى صلة النقد والبلاغة بالأدب العربى وفنونه القولية.

ومن ناحية أخرى فإن اهتمام النقاد والبلاغيين بالبديع كان من أهم العوامل التى شجعت الأدباء بعد ذلك على الإكثار منه فى كتبهم. وهذا يؤكد وجود الصلات والروابط القوية بين النقاد والأدباء والبلاغيين، وتبادل التأثير والتأثر بينهم فى مجالات الأدب والنقد والبلاغة[2] وهى – على كل حال – صلات وروابط لا انفصام لها.

وتتصل بظاهرة قضية اللفظ والمعنى ظاهرة أدبية أخرى ليست أقل أهمية من قضية اللفظ والمعنى، ألا وهى قضية السرقات الأدبية[3]، وذلك ما كان قد وقر فى أذهان الأدباء من أن اللفظ شئ والمعنى شئ آخر، وأن الفضل كل الفضل للفظ، جعلهم يستبيحون لأنفسهم الأخذ من معانى السابقين المطروحة فى الطريق،

---

(١) كتاب البديع لابن المعتز من أوائل الكتب فى فن البديع. البيان العربى ٩٥ – ١٠٠ للدكتور بدوى طبانة.

(٢) القاضى الجرجانى: الوساطة بين المتنبى وخصومه ٣٣، وبدوى طبانة: البيان العربى١٢٣ وما بعدها.

(٣) الدكتور محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى٧٠، و١٩٧، و١٢٣.

ويضيفون إليها ألوانا من البديع العربى. وهنا وجدنا النقاد المتعصبين للقديم والقدماء يقفون أول الأمر للأدباء بالمرصاد، ويحصون عليهم معانيهم، ويكشفون عن سرقاتهم، تقليلا من شأنهم، وشأن بديعهم الذى سيطر عليهم وعلى إنتاجهم الأدبى سواء بسواء دون التمييز.

ولكننا لم نلبث أن وجدنا من النقاد والبلاغيين من يتجاوز هذا الأخذ، ويلتمس العذر للآخذين السارقين، و لم يكتف النقاد والبلاغيون بذلك، وإنما رسموا للأدباء طريق الأخذ والسرقة من معانى السابقين، كما فعل ابن طباطبا فى كتابه عيار الشعر، ثم انفسح بعد ذلك مجال الحديث عن الأخذ والسرقات أمام النقاد والبلاغيين، حتى عدها بعضهم أخيرا من البديع. وهذا أدى إلى جرأة الأدباء، وإغارتهم على معانى القدماء، واستباحتها ما داموا يكسونها ألفاظا غير ألفاظهم محلاة بالبديع وفنونه[1] اللفظية المختلفة.

وليس من الضرورى فى هذا الموجز أن أتتبع هذه الظاهرة الأدبية بين النقاد والأدباء والبلاغيين، فحسبى الآن ما أشرت إليه من أن وجودها فى الأدب – تبعا لتصور الأدباء لها – هو الذى دفع النقاد والبلاغيين دفعا إلى الحديث عنها، ثم صار لهذا الحديث النقدى والبلاغى أثره بعد ذلك فى الأدباء. ومعنى هذا أن ظاهرة

---

(١) ابن الأثير: المثل السائر ٣: ٢٥٩-٣٣٢، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، دار الرفاعى بالرياض، والدكتور عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٢٣٢ وما بعدها، والدكتور بدوى طبانة: السرقات الأدبية ٣٢ وما بعدها، الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ - ١٩٦٩م.

السرقات الأدبية حلقة من حلقات الاتصال بين النقاد والأدباء والبلاغيين، وإن شئت قل بين النقد والأدب والبلاغة.

وبجمل ما تقدم أن وجود الظواهر الأدبية الثلاث – قضية اللفظ والمعنى، والفن البدبعى، والسرقات الأدبية – التى أشرت إليها فى موضوع الأدب، كان له أثره فى النقاد والبلاغيين. ثم إن وجود اهتمام هؤلاء بها قد شجع الأدباء المتأخرين من بعدهم على العناية بها، وذلك بالإكثار منها فى أدبهم، أى أن الصلات والروابط بين النقاد والأدباء والبلاغيين أمر واقع فى تاريخ الأدب العربى، ولها دورها الواضح والمؤثر فى كل من النقد والأدب والبلاغة وفنونها العديدة.

وأقصد بكلمة " البلاغيين " ما كانت تدل عليه هذه الكلمة من معنى واسع عند من كانوا يمثلون البلاغة العربية فى العصور الأولى من نشأة البلاغة وتطورها، حيث كانت تطلق على المشتغلين بقواعد البلاغة، وعلى أصحاب الأذواق، والآراء النقدية، وعلى جامعى الأنواع والفنون البديعية ومخترعيها من علماء العربية.

وأما عن أصحاب الآراء النقدية فلم يكن عندنا فى تلك العصور من تاريخ الأدب العربى، وبخاصة فى العصر الذى يدور فيه هذا البحث الموجز طائفة من النقاد على حدة، وأخرى من البلاغيين، و لم يكن عندنا كتب نقدية متخصصة فى النقد العربى وحده، وأخرى متخصصة فى البلاغة العربية وحدها، وإنما كان المؤلف الواحد يقوم بوظيفة الناقد والبلاغى – وحتى الأديب أيضا – فى وقت واحد، وفى مؤلف واحد، فهو يحلل كناقد، ويتذوق كأديب، ويسوق القواعد

والتعريفات كبلاغى[1]، وهو نفسه يحكم فى المسألة الواحدة من المسائل التى يعرض لها فى مؤلفه الواحد، لأنه لم يكن يفهم النقد بمعزل عن البلاغة والأدب[2] والإنشاء.

غير أن نسبة مباحث النقد إلى مباحث البلاغة كانت تختلف من مؤلف إلى آخر، ومن عصر إلى عصر فى تاريخ الأدب العربى، فقد كانت مباحث النقد تزيد عن البلاغة بوجه عام فى المؤلفات الأولى[3]، ثم تضاءلت عنها فى العصور المتأخرة، حتى اختفت نهائيا عند طائفة البلاغيين العلماء[4]. وتضاؤل النقد فى مؤلفات المتأخرين يجعل هذه المؤلفات أقرب من البلاغة منها إلى النقد – فيما نحتكم إلى التعريفات التى تفرق بين النقد والبلاغة – وعلى هذا فاعتبار أصحابها من البلاغيين أدنى إلى الصواب من اعتبارهم نقادا يوجهون الأدباء وإنتاجهم الأدبى.

ثم إن المؤلفات التى كانت تضم مباحث النقد إلى جانب مباحث البلاغة كالمثل السائر، ومعالم الكتابة، وإن لم يطلق عليها مؤلفوها اسم (البلاغة) إلا أنهم كانوا يقصدون بها البلاغة أيضا، فابن الأثير فى كتابه (المثل السائر) يصرح أن

---

(١) ضياء الدين ابن الأثير فى كتبه الثلاثة: المثل السائر، والجامع الكبير، والاستدراك خير مثال لذلك.

(٢) الدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين ابن الأثير وجهوده فى النقد ٣٠٩، وما بعدها.

(٣) الدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ١٢١–١٢٣، دار المعارف بمصر عام ١٩٦٥م.

(٤) المرجع السابق٢٧١.وما بعدها.

موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة[1]. وابن شيث فى كتابه (معلم الكتابة) يضع (البلاغة ومايتصل بها) عنوانا لأهم فصل فى كتابه، وهو الفصل المتضمن لمباحث البلاغة بمعناها الواسع الشامل، ويذكر قبل ذلك أن البلاغة عليها المعول فى الكتابة والإنشاء.

فإذا تركنا المؤلفين الذين كانت لهم أذواق وآراء نقدية، إلى البلاغيين العلماء أصحاب القواعد[2] والتقسيمات كالبهاء السبكى، فإننا نجده يستهل شرحه للتلخيص بقوله: " أما بعد فإن تلخيص المفتاح فى علم البلاغة وتوابعها، بإجماع من وقف عليه، واتفاق من صرف العناية إليه، أنفع كتاب فى هذا العلم "[3] أى فى علم البلاغة.

وهكذا نجد المؤلفين وإن لم يسموا كتبهم ومؤلفاتهم باسم (البلاغة) إلا أنهم اعتبروها فى البلاغة، سواء تضمنت بجانب البلاغة بعلومها الثلاثة مباحث نقدية أم لم تتضمن هذه المباحث النقدية.

لذلك سنرى خلال هذا البحث الموجز عن ابن الأثير هذه المصطلحات: النقاد والأدباء والبلاغيين، أو النقد والأدب والبلاغة. وذلك نظرا لأن الصلات والروابط بين الأدب والنقد والبلاغة متينة قديمة قدم الأدب والنقد والبلاغة، ونظرا

---

(١) المثل السائر ١: ١٥، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، دار الرفاعى بالرياض، والدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ٣٢٤.

(٢) راجع الدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ٢٧١ وما بعدها، والدكتور عبد العزيز عبد المعطى عرفة: قضية الإعجاز القرآنى وأثرها فى تدوين البلاغة العربية ٦٧٥ وما بعدها، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٣) شروح التلخيص ١: ٤.

لأن ابن الأثير تبعا لظروف عصره ناقد وأديب وبلاغى، كما أنه كاتب وناثر وشاعر من طراز خاص تبدو فيه آثار عوامل االبيئة الدينية، والعلمية، والأدبية، والفنية واضحة جلية، فهو صورة صادقة للحياة الثقافية من الأدب والنقد والبلاغة، تتمثل فى شخصيته الجوانب الفنية والمصطلحات الأدبية بوضوح شديد.

إن صلة ابن الأثير الأديب بالأدب وفنونه قوية الجذور، وعلاقة ابن الأثير الناقد البصير بالنقد العربى متينة أصيلة، وروابطه بالبلاغة العربية كبلاغى بارع جذرية عميقة، وتعلقه العميق بالكتابة ككاتب ماهر يصل إلى درجة العشق المحترف، وقد عاش ابن الأثير تحت ظل تلك المظاهر فى مختلف صورها أدبية ونقدية وبلاغية وفنية، وقد تركت آثارها العميقة فى مآربه البيانية، وفى اتجاهاته البلاغية، وآرائه النقدية، وفى فنه الكتابى الذى عارض به معاصره القاضى الفاضل. فهو إذن حلقة اتصال مباشر بين الأدب والنقد والبلاغة، وهمزة وصل بين الأدباء والنقاد والبلاغيين، وبالاختصار فإنه استمرار لتلك العلاقات الأدبية، ودوام لتلك المقاييس الفنية، وتجسيد لتلك الفنون والألوان فى صورها اللفظية والمعنوية[1] المختلفة.

---

(١) راجع تفصيل ذلك فى" الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول " للدكتور المرحوم محمد عبد القادر عبد الناصر، رسالة الدكتوراه غير مطبوعة، الرقم ٢٢٦٧ مكتبة جامعة القاهرة، كلية الآداب، عام ١٩٦٨.